

وثبة الشرق

بحث

في أن العقلية التركية الحديثة هي مثال العقلية السليمة
التي يجب أن ينتحلها الشرق
ليجاري سير الحضارة العالمية

لا أظن أن من الأقوال التي صدرت عن حكماء الغرب وكتابه قول هو أبعد عن محجة الصواب من قول الكاتب « ولز » ، « الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا » . فأنها كلمات أملاها غرور لهمبرراته ، واعتداد بالنفس له نتائج ومقدماته . على أن هذا القول لا يدل على شيء . بقدر ما يدل على ضيق في النظر وحر ج في النفس ، سببه حالات قامت في الشرق ناظرتها حالات ارتقائية قامت في الغرب ، فعددت حالات الأول به عن اللحاق بالحد الذي وصل إليه الثاني .

على أن محور هذا القول يدل على عقلية تلزم صاحبها الاعتقاد بأن الشرق لن يستطيع أن ينتحل عقلية الغرب ليلتقي الاثنان في ميدان الجهد الانساني . ولا جرم أن هذا خطأ كبير وتعميم خطير النتائج بعيد الأثر في الاذهان : وهو بعد ككل التعميمات الفلسفية والاجتماعية والاحكام العامة الرنانة ، تطن بعيداً ولكنك لا تجد لها من حقيقة مادية ترتكز عليها . ولعمرك كيف يمكن أن يقبل حكم كهذا الحكم ويؤخذ على أنه قاعدة ثابتة ، وأنت لو رجعت الى التاريخ القديم لوجدت أن اليونان كان لهم الحق في أن يقولوا نفس هذا القول عن الشرق ، وإن الشرق قدمرت به أدوار لادور واحد ، كان من حقه أن يقول فيه أكثر من هذا في الغرب وفي أوروبا بالذات ! إذ فهو تعميم لا قيمة له من جهة الواقع ، وأنه كانت له مبررات زمانية ، وظواهر لا يمكن نكرانها في هذا العصر . وأنت اذا رجعت الى حالات اليوم والناس التي قال فيها « ولز » ، هذا القول وقستها بحالات الشرق في هذا العصر ، لوجدت أن مبررات هذا القول أخذت تتضاءل وتزول أهميتها شيئاً بدمشي . ولا نبالغ اذا قلنا بأن هذه الكلمة التي طنت في أوروبا وتجاوبت بها أنحاء الشرق زمان كادت تصبح من الأقوال المتبوءة . بل أصبحت صورة حفرية لعقلية قامت في الغرب في الزمان الذي كان المريض العثماني ملقى فيه على فراش المرض ، والامبراطورية التركية آخذة في سبيل الانحلال . ومصر مستنمية لحكم القاصيين ، والهند مشغولة بحزبياتها

الدينية ، وفارس خاضعة لنفوذ روسيا ، والافغان راتعة في جبالها منقطعة عن عمران الحضارة ، وشمال أفريقية نهب للجنح الفرنسي من ناحية ، وسوء الادارة التركية من ناحية أخرى ، وسوريا وفلسطين والعراق مستنجات في سبات عميق ، كأن الفلك مآدار من حولهن ، وكأن عجلة الزمان مالفت على أهل هذه البلاد .

ولاشبهة في أن هذه الحالات قد تغيرت الآن فتغيرت معها تلك العقلية التي أملت هذه الكلمات . وبكفيك أن تعرف أن السلطات الاستعمارية أخذت تعترف شيئاً بعد شيء بحق الشعوب الشرقية في الحياة ، بحجة على ذلك بحكم المقتضيات التي تلزم الناس والشعوب على تغيير عقليتها وأساليبها خضوعاً لحكم الظروف ، ابتغاء الموازنة بين الحاجات والضرورات

ولقد مرت بأوروبا برهة من الزمان اعتقد فيها المفكرون أن الدين الاسلامي زائل يوماً من الايام وأن العقلية الشرقية لن تخرج من تلك الدائرة الضيقة التي رسمها الفقهاء خلال القرون . فظهر أثر هذه العقيدة الغربية في السياسة اندولية وعملت الدول الأوروبية على تقسيم الامبراطورية العثمانية الى مناطق تفوذ تختص كل دولة بمنطقة منها وتكون من حصتها عند تقطيع أوصال الغنيمة إذا ما حان لذلك الوقت الملائم . ولقد تمزقت الامبراطورية العثمانية كما تمزقت الامبراطورية النمساوية ، ولكن من من الأوروبية وبين يستطيع اليوم أن يدعى أن الشعوب التي انفصلت عن الامبراطورية العثمانية أقل شعوراً بحقوقها في الحياة ، من الشعوب التي انفصلت عن الامبراطورية النمساوية ؟

لقد اعترف للشرق بحق الحياة . واعترف الاكثرون أنه قد يلتقي الشرق والغرب في ميدان الجهاد الانساني . فلنعمل اذن على تحقيق ذلك في أكبر دائرة من الامكان .

لانكران مطلقاً في أن العقلية التي نشأت في الشرق ، وتقصد به آسيا في الغالب هي العقلية التي لا تلائم مزاج هذه الحياة . هي العقلية التي لا تنسق وحاجات هذه الحياة الدنيا . بل أنت اذا قلبت أوجه النظر في هذه العقلية الفيتية تلائم من كل نواحيها الحياة الاخرى . نكران لكل مطالب الحياة ، وتواكل على القضاء والقدر ، واستسلام صرف لما سوف يأتي به الغد ، واغفال محض لمواعظ الماضي وعظاته . هي عقلية توافق المزاج الانساني في غرارته الاولى وبساطته وأساطيره ، عندما أخذ فجر العقل

يتنفس من خلال الظلمات الاولى . ولقد عيب على الشرق أن يكون هذا حال عقلية أهله ! وفي الحق أن الشرق يجب أن يعاب عليه تواكله واستسلامه للمقادير وخضوعه لامرأته من ناحية ، ورجال الدين والفقهاء من ناحية أخرى . غير أن أخذ الشرق بهذه المناقص الكبرى من غير تعليلها تعليلًا يظهر حقيقتها ، غبن فاحش على الشرقيين ، واستسلام الشرقيين لمثل هذه التهمة الشنعاء أمر يعابون عليه أكثر مما يعاب عليهم توارثهم لمثل هذه العقلية منذ أبعد عصور التاريخ .

كان الشرق مهد الانسان ، فيه ظهرت جماعاته الاولى ، وفي وديانه الخصية نشأت الحضارات البدائية التي جاهد الانسان في سبيل الفوز بها وتناحر من أجلها مع وحوش الغابات وميكروبات الماء والهواء والطفيليات ، وجالد العناصر الطبيعية وقواصر المناخات المختلفة ، حتى استطاع في النهاية أن يستقوى عليها جميعا ، فيرت الارض ومن عليها ، ويشيد تلك الحضارات العجيبة تتلو احداها الاخرى كأنها في ظلال التاريخ أشباح مرده من الجن أو جبابرة من الخيال تتصارع في أفق الروايات الانسانية صراع الكواसर عضها الجوع أو أخذتها غصبة الانانية . فتلوح ظانها في ميدان حرب تتناوب فيه الغلبة حيناً والانتكسار حيناً آخر ، وأنت بين هذا وذاك ترى المدينيات تنشأ تدرجاً وتقوم لماماً على المسرح الانساني ، ثم لا تلبث أن تراها تنهار وتقفوض دعائمها ، كما لو كانت جدراناً متداعية ، وضع الفأس في أصولها جبار قوى الأصلاب

ترى هل كان غير الشرق من بقاع الكرة الارضية ميداناً لمثل هذا الصراع ؟ وهل كان غير الشرق مسرحاً لتغالب هذه القوى وتفانيها ؟ هل كان غير الشرق مهداً للجماعات الانسانية الاولى ؟ كلا . ففى ذلك الوقت الذى جالدت فيه جماعات الانسان الاولى الوحوش والعناصر لتفوز بالغلبة عليها فى أنحاء الشرق ، كانت بقية الكرة الارضية ملكاً لغيره من الحيوانات العليا من ذوات الثدي . غير أننا نتساءل . وقد نشأ الانسان نشأته الاولى ضعيفاً فى القوة البدنية . بل حيواناً شجرياً بسيطاً من حيث القيمة الجثمانية ، كيف استطاع أن يتغلب مع هذا على غيره من الحيوانات الكبيرة ؟ استطاع أن يتغلب عليها بكفاءته العقلية التى نشأت فيه على مر الازمان واستطاع بها أن يتغلب على غيره . فلما احتاج الى زيادة استعمالها نمت وكبرت مع الزمان

وتطورت نشوءاً على مدى الاحقاب . وفي هذا الطور ، الطور الذى بدأ الانسان يدرك فيه أنه سيد المخلوقات وأنه يمتاز عليها بقوة العقل ، بدأ طور الفلسفة على قدر ما استطاع الانسان أن يدرك من حقائق الموجودات . وكانت النشأة الاولى بالضرورة من موضوعات تفكيره . فقد رأى الحياة يتلوها الموت والموت تتلوها الحياة على التعاقب والتواتر ، ففكر فى تخيل ثم استوى على الصورة اللاهوتية الاولى التى هى أول مدارج العقل الانسانى فى تقسيم كون ، لصور النشوء الفكرى فى الانسان .

وكان من نتاج ذلك أن يختص الشرق بوراثته متأصلة فى تضاعيف فطرته وحاجة لاشعورية جرى عليها ، هى الحاجة الى القيادة الروحية والاستسلام اليها فنشأت عن ذلك صور متخالطة من صور الميثولوجيا دارت كلها حول الخلق والعدم والحياة الاخرى . وكان من الضروري ، مادامت الحياة فوق هذه الارض لادوام لها وكانت باقية فى العالم الثانى ، أن ينصرف اللاهوت فى الشرق ناشئاً عن الميثولوجيا القديمة الى الحياة الاخرى ، وأن يبشر بهذه الاسطورة لاهل الشرق . ولكن العجب أن يظل الشرق عاكفاً عليها ؛ فى حين أن الغرب يتغلب ويستقوى عليها فيفوز الغرب بالحياة ويفوز الشرق بخيال الآخرة . هذا مع اليقين بأن الغرب قطعة من الشرق انفصلت عنه ، كما انفصل القمر عن الارض منذ بداية التكوين .

لاشك فى أننا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة تعليلاً طبيعياً . فانك اذا تخيلت قبيلة من القبائل بدأت هجرتها من أواسط صحراء التبت ، مثلاً متجهة نحو الغرب ، وارتدت أن تعرف أى عناصرها الأقوى ، على فرض أنها أخذت تهاجر ، مستمرة فى هجرتها الى آخر مدى يمكن أنه يبلغه افرادها ، فلاشك فى أنك تحكم بان أقل افرادها قوة هم الذين يقفون عند حدود فارس وأوسطهم الذين يبلغون العراق وأشدهم الذين يجتازون مضيق البوسفور . تجربة طبيعية تدل على صفات كامنة . وهى أن دلت فى أول ما تدل عليه على صفات جثمانية فائقة ، فهى راجعة الى صفات نفسية أيضاً . الى صفات الاقدام والشجاعة والتغلب على المخاوف ، تلك الصفات التى لا يمكن أن تبرهنها من أثر القوة العقلية أو تبرى بالقوة العقلية منها . فاذا رجعنا الى المستكشفات الحديثة فى علم الانسان والشعوب واعتمدنا على ما وصل اليه العلم فيهما ، وفرضنا أن الانسان نشأ فى أواسط آسيا ، استطعنا بنظرة واحدة فى توزيع الشعوب البشرية فى آسيا وأور وبا أن تثبت هذه الحقيقة . ففي الطرف الغربى من

أور وبأرقى أمم التوتون والانجلوسكسون ، يناظرهم في الطرف الشرقى من آسيا أرقى أمم المغول . بربط نيا العظمى ، من ناحية ، وإنيابان من ناحية أخرى . ولقد فازت الأولى في ثلاثة قرون بحكم الدنيا . ومن ذا الذى يعلم ما سوف ينجلي عنه مستقبل الثانية .

هذه الحقيقة التى لا ينزع فيها هى السر فى تقدم الغرب وتأخر الشرق . وإنك لتجد أن صنفاً العقليّة يتدرج من حدود روسيا إلى الجزر البريطانية ومن حدود بغداد إلى اليابان . بل أنه يتدرج فى سلسلة تجييه من الحلقات المتتابعة .

إذا أدركنا هذه الحقيقة عرفنا لماذا ارتقى الغرب ولماذا ترك الشرق غارقاً فى بحار الدينيّة مستسلماً إلى الآخرة مستنياً لحكم الفقهاء والأمراء المستبدين بأمرهم الممثلة لله فوق الأرض . ففكرات حملها المقدمون فصارت لهم تبعاً ، وغرق فى بحارها الجامدون فصاروا لها تبعاً . هذا كل ما فى الأمر .

ولكن هل يمكن لمن ظل جامداً من شعوب الشرق وورث عن النشأة الأولى موحيات اللاهوت البدائي ، أن يتجلى العقلية المرنّة التى دفعت بأهل الشرق الأقصى إلى المحيط الهادى ، ولولاه ماوقفت هجرتها ، ورمى بأهل الغرب إلى بحر الظلمات ولولاه لماصدها عن الاقدام صاد ولا حال دون هجرتها حائل ؟ لا اعتقد أن هذا من المستحيلات ، بل أعتقد أنه أهون الممكنات . ولكن بعد بضعة تجارب بسيطة . هزات عنيفة تحرك الجمود ، ودماء تراقى فى سبيل العتق ، وثورات طاحنة ، كانت ثورة الأتراك أولاً ، وثورة الأفغان ثانياً .

هذه هو التعليل الصحيح للبررات التى جعلت أقولة « ولز » ذلك الصدى العميق . وهى على ما فيها من بساطة التركيب ، مبررات على كل حال . ولكنها لا تقوى على مقاومة التحليل التاريخى على ما أرى .

ولست أريد أن أستعمق بعد هذا التحليل فى البحث والتنقيب . فالحقائق بينة والطريق مهور ، لولا بعض عتبات ليس تذليلها فى حيز المستحيل . لهذا ترك البحث لنهد لك طريق الدخول لاستيعاب العقلية التركية الحديثة التى هى فى معتقدى مثال العقلية السليمة فى الشرق الأوسط أو الشرق اللاهوتى ، وارث الجمود والاساطير .

ما من شبهة تقوم في عقل المؤرخ فتورثه الحيرة والارتباك ، أكبر من تلك الشبهة التي يحاول أن يتخلص منها في كل مدرج من مدارج التاريخ البشرى إذ هو مكب على رواية حوادثه ، شبهة أن المدارك الانسانية ناقصة وأن النفسية الضمامية أى نفسية الجماعات ، نفسية بدائية فيها غرارة الفطرة الاولى ، وسداجة الطفولة ، وضعف الخنوة واستكانة الرق والعبودية .

هى لدى الواقع حقيقة ثابتة تقوم في عقلية المؤرخ لابس صورة شبهة أوشك مبهم غامض ، ذلك لأن المؤرخ ان استطاع أن يدرك حقيقة البشرية على صورتها الصحيحة ، فهو أول شيء مغلول الفكر بأنه أحد أفراد بنى الانسان ، إن شك في مداركهم فقد شك في مداركه ، وإن أنحى عليهم بالنقد فهو بدياً ينتقد شيئاً هو جزء منه ، وقطعة لا يمكن أن تفصل عن أصلها إلا لماماً ، لتعود اليه مرة أخرى بقوة جذب خفية عميقة الأثر في تصارييف الحيوان الناطق .

هو يعلم بأنه مكب على رواية سخافات جذيرة بأن يكون الانسان خالقها من العدم وسفاسف ما قامت في عالم الحياة إلا بقيام الفكر البشرى مسوداً على مافى الحياة من صور . ثم هو بجانب هذا يحاول دائماً أن يستمد من الخيال قوة يستقوى بها على منازع النقد ليخفى الحقيقة عن نفسه أولاً ، ثم يحاول اخفائها فيما بعد عن بقية الناس .

هو يعلم أن كثيراً من النظمات البشرية نظمات بربرية وحشية ، وأن خضوع الجماعات لهذه النظمات بحكم العادة أحد مناقص الطبيعة الانسانية ، وجزء لا ينفصل عن طبيعة الضعف الكامن في قلب الانسان ، ولكنه مع هذا يحاول أن يمجدها لهذا الضعف مبرراً وتلك المناقص أعذاراً واهية ساقطة ، بله الدفاع عن نظمات ان دلت على شيء ففى أول ماتدل عليه نقص في الفطرة وميوعة في طبيعة الاشياء الانسانية ، هى لدى الواقع إحدى المكونات الاولى التى استحدثت ما ندعوه بالتاريخ الانسانى هو يعلم أن الاوهام هى التى شيدت معابد الكلدان ومصر ، وانها هى التى الهت بوذا وكونفوشيوس ، وانها هى التى اقامت الاهرامات ، وان هذه النظمات بعد ان استمدت من الاوهام اصلا قامت عليه ، أخذت تعمل على ان تمد من أجل الاساطير

وتطيل من عمر الخرافات - ومع ذلك فهو يحاول أن يدافع عن أشياء أساسها الوهم وأصلها الخيال .

هو يعلم أن نظام الملكية نظام مستمد من أصول وحشية أولى ونظمات بدائية قيامها في العصر الحاضر بمثابة الاحافير تقوم في باطن الارض برهاناً على ان صوراً من أمثالها عاشت على الارض في عصر من العصور ، ومع ذلك تجد المؤرخ يحاول الدفاع عن هذا النظام ان كان في نظام ملكي ، كما يدافع عن الجمهورية اذا كان في نظام جمهوري ، وعن القوضوية اذا كان في نظام فوضوي ، على سعة ما بين هذه النظمات من تباين واختلاف .

هو يعلم أن نظام الخلافة نظام قاسد ، كما كان نظام البابوية في روما ، ولكنه مع ذلك يحاول ان يستمد من التاريخ مبرراً له ، أو يعتمد الى القول بأنه نظام ليس من روح الاسلام في شيء .

شبهات وشكوك وابحاث ضائعة ، فيها من المواربة واللف ماتفى عنه كلمات وجيزة ، واسطر معدودة . شبهات وشكوك اول باعث عليها شعور عميق بما في النظمات الانسانية من نقص ، لا يبعد أن يكون في العقل الانساني نقص ينظره ، به يبعد الناس عادة عن رؤية الحقائق كما هي ، أو كما هي واقعة

صدر كتاب « الاسلام واصول الحكم » فحاول صاحبه أن يثبت أن الخلافة ليست من نظام الاسلام في شيء وعتمد الى أقوال المعاصرين في صدر الاسلام والى الاحاديث . وهي أقوال وأحاديث ان دخل الشك في شيء . فهي أول ما دخل فيه الشك ، وان تناوبت الشبهات على شيء . فهي أول ما تناوبت عليه الشبهات . يعتمد الى هذا ليبرر الغاء الخلافة . فهو في ذلك مثال المؤرخ تشابهت عليه الحالات ، وقامت في نفسه مشاعر ملؤها الاعتقاد بالنقص الانساني وخضوعه للاوهام ، فحاول ان يستمد من غير الواقع اوجه دفاع عن النفس الانسانية اولاً ، ثم عمد بعد ذلك الى تقرير ما يخالف الواقع ارضاء لمنازع فئات هو يعتقد أنها مخطئة وأنها على ضلال . ولو أنه ترك كل هذا وقال ان الخلافة نظام ورث عن الاسلام ولكنه لا يوافق روح العصر ولا حاجات الزمان الحاضر ، لوجد انصاراً من نفس الذين يخالفونه في رأيه الاول مصوباً في القالب الذي صبه فيه ، ولكن

أقرب الى الحقيقة، وأقرب لفضائل المؤرخ تخلص من شبهات الوهم التي تقوم في
الذهن عادة لدى التفكير في نظام الجماعات .

ولسنا نريد أن نفتح باباً جديداً يلجئه المؤرخون ويأخذون بتلابينا كما يفعل
الآداباء في مناقشاتهم الأدبية، قائلين اين الحجة التي تؤيد بها أن الخلافة أصل من
أصول الاسلام؟ والحقيقة أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الاسلام، ولكنها كما
قلنا نظاماً ورث عن الاسلام في نشأته الأولى. فان محمداً كان نبياً ومشرعاً وقائد
جيش ومقيم امبراطورية وملكا غير متوج على معنى الملكية قديماً وحديثاً، بل
حصرت في شخصية قوة السلطين الروحية والزمانية . وعلى هذا النظام سار الخلفاء
الراشدون من بعده، وعنهم ورثها معاوية في الشام، والعباسيون في بغداد،
والفاطيون في مصر، والعباسيون من بعدهم .

اذن فالخلافة «نظام» اسلامي مأخوذ من روح الاسلام ومن تقاليده الموروثة
التي قام عليها في نشأته الأولى. وكان لزام على الاسلام أن يحصر السلطين في يد موجد
أولاً، في عصر كثرت فيه الفتن وقام العرب ينازون الاسلام والمسلمين . فلما مهدت
الحروب الداخلية سيل الحياة بعد انتصارات أيده . ورث النظام وعليه سار الاسلام
والمسلمون

لهذا نعلم إلى مؤرخ ثبت نقل عنه قطعاً ثبت بها أن الاسلام كل لا يتجزأ
ووحدة لا تقسم عراها، وأن الخلافة باعتبارها نظاماً اسلامياً لا بد من أن تكون
أحد أجزاء السلسلة التي تكون عقد الاسلام

نعمد إلى العلامة كارل . ه . بيكر Carl. H. Becker وزير الفنون والعلم
والترية في ألمانيا - ١٩٢٧ - وهو أحد مشهورى المستشرقين . أما أبحاثه الاسلامية
فتعتبر من أدق المباحث واطلاها وأكثرها ابتكاراً وأعماقها فكرة واصحها سنداً .
ولقد ترجم كتابه المعروف «فتوحات العرب» إلى الانجليزية وضمته جامعة
كمبردج إلى مجلداتها التي تخصصها لدراسة تاريخ القرون الوسطى - ١٩١٢ - وله
مجلة ذات شهرة واسعة اسمها الاسلام . Der Islam . تكاد تكون المحور الذي تدور
من حوله كل الأبحاث المتكررة في تاريخ الاسلام ونبعاً فائضاً للتنقيب المنتج في

أخص المسائل التي تتعلق بالمدينة الإسلامية . أما مانقله هنا ، فمن مقالة له تحت عنوان « الإسلام في التاريخ » نشرت في مجلة « الأمم » التي صدرت في شهر فبراير سنة ١٩٢٧ : قال :

« تستعمل لفظة « الإسلام » عادة في كثير من المعاني المختلفة . فقد نستعملها لتدل على دين الإسلام ، سواء أتكلمنا في تعاليم محمد الأصلية ، أم في مجموع المذاهب القديمة التي هو شيء . يختلف تمام الاختلاف عن تلك التعاليم ؛ أو في دين المسلمين المعروف اليوم في آسيا وأفريقية . وسواء أوعينا في اذهاننا أوجه النشاط الديني التي يديها الأتراك أو الزنوج ، وسواء أتكلمنا في الغزالي أو في المهدي السوداني ، فإنا نستعمل اللفظ ذاته ونقول « الإسلام » . وكلما كانت معارف الناس أقل ، كانوا أشد نزعة إلى التعميم . فمن ذا الذي يجرؤ مثلاً على أن يصف الأوضاع الكنسية في بلاد الحبشة بأنها ذات النصرانية ، من غير أن يعرض نفسه للاستهزاء والسخرية ؟ ولا جرم أن القول بأن هذه الأوضاع هي بذاتها البروتستانتية للنصرانية ، من غير تعديل أو تكافؤ . بين الحالات ، لا بعد عن أن يتورط فيه باحث يزن الأشياء بميزانها الصحيح .

« ولم نكتف بهذا بل استعملنا لفظ « الإسلام » ، ليدل على إحدى امبراطوريات الشرق العظمى ، أو على كل الحكومات المتفرقة التي كانت تنشأ عادة على انقاض الامبراطوريات الكبرى وبقاياها ، حتى ائتمد نطلق الاسم على الحكومات المحمدية التي نهانها قائمة في الزمان الحاضر . غير أننا لم نعن « بالإسلام » مجرد الحكومات الفعلية ، بل صرفاء على شيء . أكثر من هذا خطراً . فعرفناه على أنه نظرية سياسية ، سواء أقامت تلك النظرية على مذهب سياسي أو مبدأ تنزيلي .

« وكلما استعمقنا في بحث هذا الموضوع ، ازددنا اقتناعاً بضرورة التفريق بين المدلولات . غير أنه ليس في وسعنا أن نقرر بصلابة أن تعريفاً جامعاً مانعاً يجب أن يوضع لتحديد ما يعنى بلفظ « الإسلام » ، في كل حالة من الحالات الخاصة ، وعلى الأخص إذا عمدنا إلى وضع تقديرات معينة للقيم المتناظرة . على أن الباحث الاختصاصي ، مهما جهد نفسه في التحوط والحذر ، ومهما بذل من عناية في استخلاص تلك التحديدات الضرورية ، فإنه لاحتمال يستعمل تلك اللفظة العامة - « الإسلام » . على أنه يجب أن

تساءل ! هل لهذا من مبرر ؟ أو بعبارة أخرى : هل كل المعاني المختلفة التي يجمع بينها هذا الاصطلاح تدخل حقيقة تحت مدلول « الاسلام » عامة ، ذلك المدلول الذي لا يخرج بدياً وتخصيصاً عن أنه دين ؟ غير أن هذا السؤال قد أجبتنا عليه مقدماً وحددناه ، إذ قلنا بأن اصطلاح « الاسلام » ومساآله في التاريخ ، قد استعملناه من غير أن نضيف الى ظاهره مدلولات أخرى . »

» اما وقد حللنا كلمة « الاسلام » ، فانا بذلك نكون قد جاوزنا النظر في العوامل الاساسية ، التي اذا أخذت في مجموعها ، كونت ذلك الشيء الذي نحس بأنه التصور الوحيد الذي يمكن أن نكونه في « الاسلام » : أي ذلك الايمان الكلي المتماسك الاطراف ، وذلك المثل السياسي الاعلى المتآلف الأجزاء ، وتلك المدينة المتناسقة التي تمتشى في اجزائها فكرة الوحدة والاتلاف ، والتي فضلاءها نجد فيها من الاختلافات الموضوعية ، نلمح في مجموعها وحدة المثل العليا ، كما تقع فيها على شيء من الوحدة في العمليات . ومامن شك في أن « الدين » هو الذي يجمع بين هذه العوامل الشتية ، وان الفكرتين السياسية والمدينة ، كليهما ، لم يكونا لينتشرا ويثبتا مع الزمان لولا قيامهما على قاعدة الدين . وكذلك نجد في الوقت الحاضر أن « الاسلام » رابطة من الوحدة قوية ، عادت في كل عصور الاسلام ، قوة « القومية » الشديدة الأثر في النفوس ، فجمعت بين الناس وكونت منهم عصبا أقوى وأشد مراساً . فان زنجياً من زنوج قبيلة « الوغيدو » - Wangido - في شرق افريقية الالمانية اذا أصبح مسلماً فانه لا يسمى باسم قبيلته . بل يسمى بالاسلام (١) ويصبح العربي أخا للزنجي المسلم . وبذلك تماسك كل الحيوآ المختلفة وتفق كل النزعات المتباينة ، من حول المركز الديني في مكة . وفي مناواة أوروبا على الاخص ، تجد أن المسلمين يشعرون شعوراً عميقاً بأنهم وحدة متماسكة الاطراف . لهذا يحق لنا أن نتكلم ، مادام أن الدين يصبغ الحياة اليومية بصبغته الخاصة ، إن قليلاً أو كثيراً ، في مدينة اسلامية موحدة الاجزاء . فنقل الى الذهن دائماً حقيقة أن هذه المدينة الدينية مؤثر فصل ، يقطع بين حدين قطعاً تاماً .

(1) Missions - Blatter (journal of the st. Benedictus - Missions - Genossenschaft, st. Ottilien) XIII, Heft 9 P. 130.

• وهذه الحالات ، التي لانشك مطلق الشك في أنها لاتزال قائمة حتى اليوم ، قد زادت الى صسوبة الفهم لدى البحث في تاريخ نشوء الاسلام . واذ نعرف أن الدين الى الوقت الحاضر مايزال العامل الاقوى الذى تقوم عليه كل الاشياء الاخرى مما يتعلق ، الاسلام والمسلمين ، وإذ نرى أن كل الظواهر التاريخية الخاصة بالاسلام يجب أن يرجع فيها الى مؤسس الديانة ، فإى شىء يمكن أن يكون أقرب الى البديهة من أن نعتبر الدين العامل الاساسى أن لم يكن العامل الاوحد ، الذى تعود اليه حقيقة خلق مدينة اسلامية متلائمة الاطراف .

• ولدينا عامل آخر ، نتج عن العكوف على عادة النظر فى الاشياء من وجهة النظر الكنيسية ، تلك العادة التى ورثناها عن القرون الوسطى . ولاجرم أن هذا الاتجاه لايزال ثابتا فى نفسيتنا لدى النظر فى الاسلام ، حتى الوقت الحاضر . فقد اعتدنا فى القرون الوسطى ، حتى فى أوائل العصر الحديث ، أن ننظر الى الاسلام بديا على أنه دين معاد ، وضع حداً لاتشّار المسيحية ، وهددها فوق أرضها تهديداً شديداً . وكانت النظرة التى نظر من ناحيتها فى نشوء الاسلام قد انحصرت فى الاعتقاد بأن الدين الجديد قد ملا صدر العرب حماسة وأفعمها حمية ، وأن المسلمين قد اندفعوا الى الفتح الحربى تحت تأثير الرغبة الشديدة فى هداية أهل الأرض الى الاسلام ، وأنهم إنما يعملون على نشر دينهم بالسيف ، وأن محمداً كان نبيا ورجلا سياسيا معاً . بل اعتقد بأن الثقافة العربية ممزوجة بالدين الجديد — « الاسلام » — قد كوت تلك الصورة التى تعرف بالمدينة الاسلامية العربية ، وأنه على الرغم من أن عددا من النظومات والفكرات الجاهلية قد استمرت باقية ثابتة الاثر ، فإن الدين وحده لم يكن السبب الذى خلق المدينة الجديدة ، بل صورها ونظمها لاغير . اخذ الدين هو القاعدة وكل الصور النشئية الأخرى ، لم تكن إلا نتيجة من نتائجه . فكان من الضروري على مقتضى هذه الفكرة ، أن يدمع الدين طابعه الثابت فى جبين الوحدة الصورية والخلقية . ومن هنا نشأت الفكرة فى مدينة اسلامية متلائمة الاجزاء ، موحدة الاطراف .

• ولا مشاحة فى أن كل باحث يتصل بكتاب العرب وفكره مليء بمثل هذه الآراء

وبجانها نظرة غير صحيحة تتكون حول تاريخ النصرانية (١) يجد أنها آراء لها ساداتها ومبرراتها . ذلك لان السلطات المحمدية لها قواعد كهنوتية مقررّة مفروغ منها . كذلك تراهم يقررون جملة بأن نشوء الاسلام من خلق محمد ومن ابتكار الخلفاء الراشدين في عصر الاسلام الذهبي . وعندهم أن الحكومة والمجتمع ، وكذلك الحركتان العلمية والاقتصادية ، جماعها تخضع للقواعد الدينية . وكان المتبع أن يخلع من هذه الارض الدينية التي اعشوشبت بمختلف النظريات ، كل نبتة طفيلية يمكن أن تنبت في جنب من جوانبها وتنبذ نبذاً . إذن فالعالم الاسلامي محكوم بالدين سواء في ماضيه أم في حاضره ، ولونظريا على الاقل .

وغير ان النقد الحديث لم يتناول هذه المباحث الا منذ عهد قريب لا يتجاوز بضعة عقود من الزمان ، وعلى الاخص بعد ظهور تاريخ الثقافة • Kulturgeschichte - الذي ألفه العلامة الكبير • الفرد فون كريم • Alfred von Kremer . ولقد نجحت الابحاث الحديثة تدرجاً وعلى مر الايام في أن تتحرر من تقاليد الاسلام ، وعمد البحوث وطلبة العلم ، سواء أفي السياسة والشرعية ، أم في الدين والحياة ، الى التفريق بين النظريات والعمليات . ولقد حققوا بهذه الوسيلة أن الانتصار في المعركة التي قامت بين مطالب الدين ومقتضى العادات القومية ، قد حالف الثانية دون الاولى ، بل أثبتوا أنه في خلال الصراع الذي قام بين مختلف الآراء المتنازعة ، لم يكن اللون الديني غالباً الا عبارة عن وضع أدبي ، لا أقل ولا أكثر . ورأوا ان الشريعة الدينية لم تنشأ متطورة عن الاوضاع التشريعية العملية التي كانت قائمة بالفعل ، بل أتت منابذة لها . ومن ثم اتضح ان بناء الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم ، بل على اطلاق القول ، بل عملوا ، في أول ما عملوا له ، على تثبيت سلطة العرب الزمانية وتركيز سيادتهم فيما جاورهم من الامبراطوريات . ولا جرم أن جماع هذا يزودنا بمادة واسعة

(١) يشير الكاتب على الاخص الى ارنست ترولتش Ernest Troeltech

في كتابه

Die Soziallehren der christlichen kirchen (Collected Works Vol. I) ويعترف المؤلف بأنه مدين لهذا المؤلف بكثير من الفكرات التي عنت له في خلال هذا البحث من قراءته لهذه القطعة وغيرها من القطع المتناثرة خلال هذه المجموعة

تشبع بهم الفكر . لهذا يحق لنا أن نتساءل ، حين نواجه هذه الحقائق ، اليست فكراتة التقليدية التي ثبتنا عليها في حقيقة الدور الذي لعبه الدين كعامل من العوامل المكونة في الاسلام ، تحتاج الى تعديل وتحتاج الى اصلاح ؟ ،

وبعد فان هذه الشروح والتحليلات القيمة لاتترك للمورخ الذي يريد أن يفهم الحقائق على صورتها الصحيحة مجالا للشك في أن الوحدة الاسلامية من ناحية ، وأن بناء الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم من ناحية أخرى ، كلاهما دليل صادق على أن الخلافة نظام ورث عن الاسلام ، لانها من ناحية جزء من نشأته الاولى ، ومن ناحية أخرى أساس قامت عليه الفتوحات ، وتكونت من فوقه دعائم لامبراطورية العربية . وهذه الحقيقة التي حاول مؤلف كتاب « الاسلام وأصول الحكم » اخفاءها ، تقررنا هنا على الضد مما ذهب اليه ، ثم نحكم من بعد ذلك بأن نظام الخلافة نظام فاسد لا يتفق وروح هذا العصر



لم يبق بنا من حاجة لان ثبت ان الخلافة نظام اسلامي ورث عن بدايته الاولى . ولكن بنا حاجة لان نحلل نظام الخلافة ، ثم نقب على ذلك بالكلام في موافقة هذا النظام للروح الجمهوريه الديمقراطية التي اصبحت طابع هذا العصر .

الخلافة نظام شاذ كل الشذوذ . ليس هو بسلطة روحية فقط . ولا هو بسلطة زمانية فقط . هو نظام يجمع بين السلطين ومزيج من قوتين يجب ان تظلا مفترقتين . هو نظام الدنيا والآخرة حصر في يد فرد واحد ، فكان الحاكم بامر الله في الناس ، وظل الله فوق الارض معاً . خليط من حقيقة واقعة وأسطورة موروثه سلطة لامسلط لها ، وقداسة لاسر فيها . وميراث عن بدايات كان لا بد للاسلام أن يقوم عليها ، ظلت قائمة في عصور اصبحت فيها ذلك الميراث عاملاً من عوامل الضعف في الاسلام . ومركزاً للتعصب لامبرله . وبورة تشع منها مفاصد الفقهاء ، فكانت على الاسلام حروباً وعلى المسلمين شواظاً من نار . قوة حصرت في يد ، وكان في الواجب ان توزع على أيد تتعاون على تسنم مدارج الحضارة . وفكرة تمجرت فتجرت من حولها العقول وعميت البصائر . لقب في غير موضعه ، وتاج مثل الارض والسماء . وصولحان

كانت كثرته العالم الاسلامي وفيه ثلاثمائة مليون من السمات البشرية ، استعدادهم
الاماء والسرارى ، ومن ورائهم انقياء . جمود لاجل حركة فيه والقلك يدور . وظلام
لاضياء فيه ، والدنيا يتناوب عليها الليل والنهار . قمع للفكر . واطلاق للشهوة . كبت
للضائير وحرية للاوهام . تمثيل للاسلام ثم تمثيل بالاسلام . فحاجة للبناء فى الظاهر ،
وأخرى للهدم فى الحقيقة .

والخلافة فوق ذلك نظام ورث ظاهره وترك لبه . فاصبحت ميراثا ، بعد أن كانت
بالبعة فرصة انتهزها الانتهازيون من الفاتحين ، والمخاطرين من اللاعين
بمستقبل الشعوب فخصروا فى يدهم سلطين بعد سلطة واحدة ، ورموا بسهمين عن قوس
واحد . ثم ورث ما استولى عليه الانتهازيون المجازفون ، فكان الميراث مقدساً كأصل
الفكرة . وكل مقدس معبود على كل حال .

ولقد أوسعت هذه الحال مجال النفاق والكذب والترهات . بل فتحت المجال
لفجرة آثمين أن يكونوا يوماً خلفاء يحملون اسم الملك واسم الله . فابناء غير شرعيين
بحكم الدين صريحاً ، وقتلة آثمون منهم من قتل أباه ، ومنهم من قتل أخاه ؛ ومنهم من
قتل أعمامه وأخواله ، استطاعوا يوماً أن يمثلوا محمداً عليه السلام فوق الارض ، وأن
يمثلوا الله تعالى فى السماء .

ولم يكن فى هذا النظام من سر سحرى جعل الناس يخضعون له خضوع العمى الذين
لا يبصرون ، إلا مهالة من القداسة حوطه بها فئة العلماء والأئمة والفقهاء . فانهم بعد أن
أقفلوا باب الاجتهاد فى الشريعة ، أقفلوا باب الاجتهاد فى اختيار أصلح أنواع الحكم المسائر
لطبيعة الحالات . وبذلك تم لهم اخضاع العالم الاسلامى ، ومضى المسلمون يتوارثون
هذا النظام جيلاً بعد جيل . فلما علا مد الحرية على الشعوب الشرقية ، بان لاهلها أن هذا
النظام مهما يكن فيه من روح الاسلام ، فانه غير ملائم لطبيعة الحالات والمقتضيات
السياسية والاقتصادية . لهذا الغنى بشوكة طاحنة ، فكان لخير الشرق والشرقيين الغاؤه .
ولا جرم أن سلطة الفقهاء أخذت تتضاءل من بعد ذلك ، ولن يمضى زمان
طويل قبل أن يتقلص ذلك الظل الكالغ الذى حال معه لون الشرق وحال بينه وبين الضياء .
لولا لقا الشرق العالم الى حضارات جديدة ، والى صور من الرقلم يألفها العالم حتى الآن .

و بعد . فليس لنا أن نتورط في البحث لاكثر من هذا . فان العوامل التي أثرت في عقلية الشرقيين وحالت بينهم وبين الارتقاء معدودة معروفة . ولكن هذا لا يحول دون القول بأن الشرق قد خطا بالانسانية من العصر اللاهوتي الى العصر الميتافيزيقي ، وكان لابد دالف بقدمه يوماً الى العصر اليقيني ، لولا تلك العوامل السوداء .

ان هذه الاشياء نماذج عقلية فصلها كونت ، في فلسفته أحسن تفصيل . وهي فوق ذلك نماذج لها تدرجاتها الدقيقة المتعاقبة التي لا يمكن أن يبلغ الانسان اليها فجأة ، بل تدرجاً وتهيئة ظروف وحالات لا يمكن أن تدرك كيف تنشأ ولا كيف تتكون في تضاعيف الفكر البشري .

إن العقلية الأوروبية الحديثة لم تكن نموذج الفكر قبل ثلاثة قرون . والدليل على هذا أن العقلية الاسيوية قد انتحلها الأوروبيون من أهل النصرانية الى عصر كوبرنيكوس وغاليليو . نعم انها لم تؤثر في الوارثات الاجتماعية ، ولكنها أثرت تأثيرها البالغ في الفكر الأوروبي . لهذا ترك البحث في هذه العوامل لرسالة أخرى نعقدها في مثل العقيلة القديمة في الشرق والغرب .

حرية الفكر

قد يخيل الى الذين يمعنون في درس هذا الكتاب ، والوقوف عند مرامي وقفات تأملية طويلة ، أن الشرق قد تحرر فكره بالفعل ، بقيام بعض زعماء يدعوون الى الحرية الفكرية ، أوقادة قضوا على بعض التقاليد القديمة التي كانت حائلا بين الشرق وبين الارتقاء .

نعم . لانتكر أن الارتقاء أصبح معبودة من رجال الشرق خصوصاً بارقي المميزات الانسانية ، وأنهم في ذلك قد جاروا الغرب وانتحلوا عنه أساليبه التي اتخذوها وسيلة للارتقاء . غير أننا لا يجب أن ننسى أننا مع هذا قد ورثنا عن الغرب جود أهل المذاهب ، والظاهر أنه من المستحيل على العقل البشري في حاله الحاضرة أن يتخلص من المذهبية على وجه عام .